



مجلة جامعة السعيد للعلوم الإنسانية

Al - Saeed University Journal of Humanities Sciences

journal@alsaeeduni.edu.ye

Vol (7), No(1), Jan., 2024

المجلد(7)، العدد(1)، 2024م

ISSN: 2616 – 6305 (Print)

ISSN: 2790-7554 (Online)



وصف القول التفسيري بالغرابة عند الحافظ ابن كثير من خلال تفسيره دراسة تحليلية

د/ سامي بن مسعود الجعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بقسم الكتاب والسنة

كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى

smjaid@uqu.edu.sa

تاريخ قبوله للنشر 2024/1/27م

تاريخ تسليم البحث 2023/12/25م

journal.alsaeeduni.edu.ye

موقع المجلة:

وصف القول التفسيري بالغرابة عند الحافظ ابن كثير من خلال تفسيره دراسة تحليلية

د/ سامي بن مسعود الجعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بقسم الكتاب والسنة
كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى

الملخص

درس الباحث في هذه الورقات مسألة تتعلق بأقوال المفسرين التي وضعها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره بالغرابة، وانتظم البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. أما المقدمة فتناول فيها مشكلة البحث والدراسات السابقة ومنهج البحث وإجراءاته. ثم عمد الباحث إلى بيان طريقة الحافظ في إيراده للأقوال الغريبة، ثم ازدلف منه إلى بيان أسباب الغرابة التي اتكأ عليها الحافظ ابن كثير في وصف القول التفسيري بالغرابة. وعرج بعد ذلك على بيان منزلة القول الغريب عند ابن كثير. وختم بحثه بعد ذلك بأهم النتائج والتوصيات، ومنها: أولاً: تجلي شخصية الحافظ ابن كثير النقدية، وخصوصاً في وصفه الأقوال التفسيرية بالغرابة، والحاجة الماسة إلى دراسة تلك الشخصية وإبراز المنهج النقدي عندها. ثانياً: تميز الحافظ ابن كثير في عرض الأقوال التفسيرية الغريبة، وبيان أسباب الغرابة سواء المتعلقة منها بالنقل والأثر أو بالقرائن وأسباب النزول، والتخصيص إلى جمع تلك الأقوال ودراستها دراسة مستفيضة. ثالثاً: تفاوت الوصف والحكم على القول التفسيري الغريب عند الحافظ ابن كثير، والدعوة إلى مقارنة ذلك بأقوال المفسرين والمحققين من أهل العلم. الكلمات المفتاحية: ابن كثير، القول التفسيري، وصف الغرابة.

He described the interpretative saying as strangeness in Al-Hafiz Ibn Kathir through his interpretation Analytical study

Dr. Sami bin Masoud Al-Jaid

Professor of Interpretation and Quran Sciences, Associate in the Book and Sunnah Department at the Faculty of Dawah and the Origins of Religion at Umm Al-Qura University

Abstract

The researcher studied in these papers an issue related to the sayings of the interpreters put by Al-Hafiz Ibn Kathir - may God have mercy on him in - his interpretation with strangeness, and the research was organized in the introduction and three detectives and a conclusion.

As for the introduction, it dealt with the problem of research, previous studies, research methodology and procedures. Then the researcher deliberately explained the method of Al-Hafiz in his statement of strange sayings, and then added to explaining the reasons for the strangeness on which Al-Hafiz Ibn Kathir leaned in describing the explanatory saying with strangeness. He then went to the statement of the status of the strange saying by Ibn Kathir.

His research then concluded with the most important findings and recommendations, including:

First: The personality of Al-Hafiz Ibn Kathir is evident, especially in his description of explanatory statements with strangeness, and the urgent need to study that personality and highlight the critical approach.

Second: Al-Hafiz Ibn Kathir distinguished in presenting strange interpretative sayings, and explaining the reasons for the strangeness, whether related to the transmission and effect or to the evidence and the reasons for the descent, and the urging to collect these sayings and study them thoroughly.

Third: The disparity in the description and judgment of the strange explanatory saying when Al-Hafiz Ibn Kathir, and the call to compare this with the words of interpreters and investigators from the scholars.

Keywords: Ibn Kathir, Explanatory Saying, Description of the Strangeness.

المقدمة:

الحمد لله الذي شرفنا بالقرآن، وجعلنا من خير الأمم أمة النبي العدنان، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، على من أرسل إلى الثقلين الإنس والجان، وآله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان. أما بعد

فلما كان كتاب الله هو الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، الذي أنزله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، كان لزاماً على هذه الأمة اتباعه والتمسك به، ولا يتحقق ذلك إلا ببيانه وتفسيره. ولما كان القرآن الكريم منه ما هو بيّن بنفسه لا يحتاج إلى بيان، ومنه ما هو محتاج إلى بيان، كان رسولنا ﷺ هو المبين الأول له، فسنته عليه الصلاة والسلام شارحة للقرآن ومبينة له، كما قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وتلقى الصحابة الكرام بيان القرآن وفهمه عن رسول الله ﷺ فيما احتاجوا إليه من البيان، ونقلوا ذلك إلى من بعدهم، وما عداه اجتهدوا في تفسيره، ونصبوا لذلك الاجتهاد معالم وسنن، من سار عليها وُفق في البيان، ومن حاد عنها غلط وجانب الصواب.

وسار على ذلك المهيع المحققون من المفسرين، ومحصوا تلك الأقوال، فقبلوا جملة منها، وردوا بعضها، وحكموا بالغرابة على شيء منها، وكان من بين أولئك الأفاضل الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) رحمه الله.

ومن هنا فقد دعت الحاجة إلى دراسة نقد الحافظ ابن كثير لشيء من هذه الأقوال وإطلاق وصف الغرابة عليها.

تساؤلات البحث:

لمّا أطلق الإمام ابن كثير وصف الغرابة على جملة من الأقوال التفسيرية، وكانت هذه الأقوال منثورة في تفسيره، ودعت الحاجة إلى جمعها والنظر فيها والإجابة على التساؤلات المطروحة بين يديها وهي كالاتي:

- ١- كيف أورد الإمام ابن كثير وصف الغرابة في تفسيره؟
- ٢- ما الأسباب التي دعت الحافظ ابن كثير إلى الحكم على القول التفسيري بالغرابة؟
- ٣- ما منزلة الأقوال الغريبة في التفسير عند الحافظ ابن كثير؟

أهمية الموضوع:

تتبع أهمية الموضوع من إدراك مشكلة البحث، وهو الأمر الذي شجع الباحث للخوض والكتابة فيه، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

- ١- تحرير مفهوم مصطلح الغرابة عند الحافظ ابن كثير، وهو ما يجعل القارئ لهذا السفر العظيم يتنبه لأحكام الإمام على الأقوال، ويفرق بينه وبين غيره من المصطلحات.

٢- الوقوف على الأسباب التي حملت الحافظ ابن كثير على إطلاق هذا الوصف، ومدى اعتبار تلك الأسباب عند بقية المفسرين.

٣- بيان حال القول الغريب عند ابن كثير من حيث القبول والرد، والراجح والمرجوح ونحو ذلك.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتحري لم أجد بحثاً يجمع شتات هذا الموضوع، ويحرر مسائله التي قصدت، وحتى الرسائل التي كتبت في منهج الحافظ لم تتطرق إلى الموضوع، بل وتجاهلت الإشارة إليه. وقد أعد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي دليلاً للأعمال والدراسات المتعلقة بتفسير ابن كثير، فجمع وأوعى، ولم يذكر دراسة واحدة تتعلق بموضوع بحثي.

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة، فحوت تساؤلات البحث، وأهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وخطة البحث ومنهجه وإجراءاته.

وجاءت خطته على النحو الآتي:

المبحث الأول: طريقة الحافظ ابن كثير في إيراد الأقوال الغريبة.

المبحث الثاني: أسباب وصف القول بالغرابة.

المبحث الثالث: منزلة القول الغريب عند الحافظ ابن كثير.

أما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

منهج البحث وإجراءاته:

قام سوق هذا البحث على المنهج الاستقرائي ابتداءً، وذلك باستقراء تفسير الحافظ ابن كثير، واستخراج المواضيع التي نصّ فيها الحافظ على وصف الغرابة، ثم اعتمدت المنهج التحليلي لسبر تلك المواضيع وتقسيمها، وسرت في بحثي على سبيل بين، هو كما يأتي:

١- اعتمدت في إيراد الآيات على رواية حفص عن عاصم الكوفي، ورسمتها بالرسم العثماني، وما ورد من الروايات عداها، رسمته حسب الرواية، وعزوته لقارئه، ووثقت نقله من مصادره الأصلية.

٢- خزّجت الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية.

٣- قمت بتوثيق النصوص التي أنقلها عن أهل العلم من مصادرها الأصلية، معتمداً على الطبعة التي ذكرتها في كشاف المصادر والمراجع.

وبعد، فما جمعته وحللتها، إنما هو جهد المقل، وبضاعة مزجاة، فإن كانت صواباً فله الحمد والمنة والفضل، وإن تكن الأخرى فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه، ورحم الله امرأً أسدى إليّ عيوبي، وشد من أزري، وقوم خطئي. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباحث

المبحث الأول: طريقة الحافظ ابن كثير في إيراد الأقوال الغريبة

المستقرئ لهذا السفر العظيم يلحظ أن مصطلح الغرابة يدور كثيرا بين جنباته، ودوران هذا المصطلح يتعلق بمسائل عدة:

أولها: القراءات القرآنية، وأعني بهذا النوع ما يتعلق بالرواية لا الدراية، إذ الدراية تتعلق بالمعنى الذي هو التفسير. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الحافظ -رحمه الله- عند تعداده للقراءات الواردة في مفردة (درست) في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، حيث نقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام قوله: "حدثنا حجاج، عن هارون قال: هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: (وليقلوا درس)^(١). قال: يعنون النبي ﷺ أنه قرأ.

وهذا غريب، فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مردويه، حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم... عن أبي بن كعب قال: أقراني رسول الله ﷺ (وليقلوا درست) ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث وهب بن زمعة، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢).

ثانيها: المسائل الحديثية سواء كانت الغرابة متعلقة بالإسناد أم بالمتن أم بهما معاً. وفي هذا تجلت صنعة الإمام الحديثية، وظهر طول باعه في هذا الفن. وقد دُرِسَ هذا المصطلح، وجمعت مسأله في رسالة علمية مستقلة^(٣).

ثالثها: المسائل الفقهية، وهي أقوال فقهية استغربها الحافظ ابن كثير ولا تعلق لها بالآية، وإنما ذكرها أثناء تقرير مسألة ما. ومن الأمثلة على ذلك، استغرابه لقول سعيد بن المسيب "الوضوء من غير حدث اعتداء". حيث يقول: "هو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك^(٤).

رابعها: مسائل علوم القرآن، وأعني بهذا النوع من المسائل التي لا علاقة لها بالتفسير، أي: بيان المعنى، ومن تلك المسائل: مسألة التعوذ بعد القراءة، حيث يقول -رحمه الله- "قال طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية^(٥)، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، وممن ذهب إلى ذلك حمزة، وروي عن أبي هريرة أيضاً، وهو غريب^(٦).

(١) وهي قراءة شاذة. انظر: المحتسب لابن جني (٢٢٥/١)، الكامل للهنلي (ص: ٥٤٥).

(٢) التفسير (٣١٣/٣)، وانظر كذلك (٣٨/٦).

(٣) وعنوانها: مدلول مصطلح الغريب عند الإمام ابن كثير، دراسة نقدية تطبيقية من خلال تفسيره. للباحث محمد علي غراب، ماجستير جامعة غزة، ٢٠١٧م.

(٤) التفسير (٤٦/٣). وانظر كذلك (٦١٠/١)، (٤٣٠/٥).

(٥) يعني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

(٦) التفسير (١١٠/١) بتصرف يسير. وانظر كذلك (١١٧/١)، (٢٨/٣).

خامسها: المسائل التفسيرية، وأعني بها أقوال المفسرين المتعلقة ببيان المعنى والتي وصفها الحافظ ابن كثير بالغرابة، -وهي بيت القصيد ومحل الدراسة-. والمتتبع لهذه المسائل يمكن أن يصنفها إلى عدة أقسام:

الأول: من حيث عزو القول الغريب إلى قائله.

الأصل عند الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عند إيراده للقول الغريب عزوه إلى قائله، ولم يخرج عن هذا الأصل إلا في مواضع يسيرة يصدرها بقوله: (قيل)^(١)، أو (عن بعض الناس)^(٢).

والأقوال المعزوة إلى أصحابها على نوعين:

الأول: ما كان معزواً إلى السلف، وأعني بهم -أي السلف- الطبقات الثلاث -الصحابة والتابعين وأتباع التابعين-.

فأما ما عزاه إلى الصحابة معظمه يتعلق بنزول الآيات^(٣)، وأكثر الصحابة ممن وصف قوله بالغرابة حبر هذه الأمة وترجمانها ابن عباس رضي الله عنهما، بيد أن الحافظ ابن كثير قد وجه سهام النقد إلى معظمها من جهة ثبوته عن ابن عباس -رضي الله عنهما-^(٤)، ولا غرو في ذلك فإن ابن عباس كما يقول عنه تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "ما أكثر ما يحرف قول ابن عباس ويغلط عليه"^(٥).

ويليه في المرتبة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه-، ثم ابن مسعود -رضي الله عنه- وغيرهم من الصحابة الكرام^(٦).

أما التابعون وأتباعهم فجل ما حكي عنهم من الأقوال الغريبة كان متعلقاً بالغيبيات وخصوصاً أخبار بني إسرائيل^(٧)، وأكثرهم وصفاً لقوله بالغرابة الحسن البصري -رحمه الله- إذا كان يغلب عليه -رحمه الله- الجانب القصصي والوعظي، وهذا ما أدى إلى جنوح بعض أقواله إلى الغرابة^(٨)، ويقاربه في الحال مجاهد بن جبر -رحمه الله-، فقد كان شغوفاً بالعجائب والغرائب، يقول الذهبي -رحمه الله-: "ولمجاهد أقوال وغرائب في العلم والتفسير تستنكر"^(٩). وهكذا.

(١) انظر: المصدر السابق (٩٢/٥)، (٢٥/٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٩٥/٥). وقد ذكره غيره باسمه كالثعلبي في الكشف والبيان (٢٦٨/١٧) حيث صرح باسم القائل وهو كعب الأحمير.

(٣) انظر مثلاً: التفسير (٣٩٣/٢)، (١٥٣/٣).

(٤) انظر مثلاً: التفسير (٢٣١/١)، (٩/٧).

(٥) تفسير آيات أشكلت (٤٦٠/١).

(٦) انظر: التفسير (٢٥٢/٢)، (٣٢/٤)، (١٦٦/٤)، (٢٩٦/٥).

(٧) انظر: المصدر السابق (٢٢٢/١)، (١٣٢/١)، (١٩٥/٥).

(٨) انظر: تفسير التابعين للخضير (٢٣٠/١).

(٩) سير أعلام النبلاء (٤٥٥/٤).

الثاني: ما كان معزواً إلى من جاء بعدهم، وهذا النوع عند الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قليل، ومن أمثلة ذلك استغرابه لقول ابن حزم -رحمه الله- في المراد بهاروت وماروت، حيث يقول -رحمه الله-: "وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم"^(١).

القسم الثاني: في علة إيراد ابن كثير للقول الغريب.

الأصل في إيراد الحافظ ابن كثير للأقوال التفسيرية الغريبة نقدها وتمحيصها والرد عليها، وسيأتي بعد إن شاء الله.

وربما ذكر -رحمه الله- القول الغريب للتبنيه على ضعفه، ودفع الإشكال الذي يطراً على فهم القارئ لبعض الآثار، وهذا كقوله -رحمه الله- عند تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ [النور: ١١]: "وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت -رضي الله عنه- وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل عليه لما كان لإيراده كبير فائدة؛ فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر..."^(٢).

القسم الثالث: في بيان أسباب الغرابة.

تفاوت منهج ابن كثير -رحمه الله- في بيان أسباب غرابة القول التفسيري الموصوف بذلك، فتارة يُنص على غرابة القول دون ذكر وجه الغرابة وسببها، وذلك كحكمه على قول ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢] حيث يقول: "وقال عطية عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: النوم، يقبض منه الروح ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: أجل موت الإنسان. وهذا قول غريب"^(٣).

وأحياناً يذهب ابن كثير -رحمه الله- بعد تنصيصه على غرابة القول إلى ذكر وجه الغرابة وسببه، وهذا كاستغرابه قول مجاهد في أن المراد بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]: "مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]"^(٤).

قال ابن كثير متعقباً: "وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]"^(٥).

(١) التفسير (٣٥٦/١). وانظر كلام ابن حزم في الفصل في الملل والنحل (٤/٢٧).

(٢) التفسير (٢٥٠/٦-٢٦٠/٦). ولعل ابن كثير -رحمه الله- يقصد بذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿يُعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِيُثْلِهِ أَبَدًا﴾، حديث رقم (٤٧٥٥)، عن مسروق عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء حسان بن ثابت يستأذن عليها، قلت: أتأذنين لهذا؟ قالت: أوليس قد أصابه عذاب عظيم؟ قال سفيان: تعني ذهاب بصره... الحديث.

وانظر: ماجوراً كلام الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٤٠/١٠) على هذا الحديث.

(٣) التفسير (٢٣٩/٣). وانظر كذلك (٨٣/٤)، (٩٢/٥).

(٤) أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره (٦٥/٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٤٧/١).

(٥) التفسير (٢٩٢/١). وانظر كذلك (٣١٠/٣)، (٦٩/٤).

وفي بعض الأحايين قد يلتبس ابن كثير -رحمه الله- للقول الغريب وجهاً، ومن ذلك توجيهه لحديث عبد الرحمن ابن جبير في نزول قول الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ [الأنفال: 17] وفيه: "أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخير دعا بقوس، فأتي بقوس طويلة وقال: جيئوني غيرها فجاؤوا بقوس كبداء، فرمى رسول الله ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فنزلت الآية^(١)."

قال ابن كثير معلماً: "وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم"^(٢).

وبهذا يتبين منهج الحافظ ابن كثير وطريقته في إيراد الأقوال الغريبة، وسعة اطلاعه على أقوال المفسرين وسبره لها.

المبحث الثاني: أسباب وصف القول بالغرابة

بعد استقراءي للمواضع التي وصف فيها ابن كثير -رحمه الله- القول التفسيري بالغرابة، وهي بضع وثمانون موضعاً، تبين لي أن أسباب الغرابة تعود إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أسباب تتعلق بالنقل والأثر.

السبب الأول: افتقار القول التفسيري إلى دليل صحيح.

ويظهر أثر هذا السبب عند الحديث عن الأمور الغيبية إذ الأصل فيها النقل، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- عند تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿قَالُوا يَا نَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [الكهف: 94].

حيث حكى عن النووي قولاً فقال: "وقد حكى النووي -رحمه الله- في شرح مسلم عن بعض الناس^(٣) أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلف بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء"^(٤).

وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب؛ لما عندهم من الأحاديث المفتعلة"^(٥).

السبب الثاني: مخالفة القول لما جاءت به السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

إذ الرسول ﷺ أعلم الناس بمعاني كتاب الله، وسنته شارحة ومبينة للقرآن، ولما كان الحافظ ابن كثير محدثاً أصبح تفسيره مرتعاً للتفسير بالسنة، فهو ابن بجدتها، ومن أمثلة استغرابه للقول التفسيري

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩٥/٨-٩٦).

(٢) التفسير (٣١/٤)، وانظر كذلك (٣٩٣/٢).

(٣) حكاة النووي عن كعب الأحبار، وعزاه الثعلبي إليه في الكشف والبيان (٢٦٨/١٧).

(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٩٣/٣).

(٥) التفسير (١٩٥/٥)، وانظر كذلك (١٣٢/١)، (٢٤٧/٤).

ما نقله عن ابن أبي حاتم في تفسيره "عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقي يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تسلم على اليهودي والنصراني، فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهو: السلام.

قال وروي عن عطاء الخراساني نحوه.

قلت: وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام. والله أعلم^(١).

السبب الثالث: مخالفة قول جمهور السلف.

فالصحابة رضوان الله عليهم هم من شاهد التنزيل، وعرف أحواله، وكانوا أصحاب لسان سليم بالإضافة إلى صحة فهمهم.

أما التابعون فهم نقلة لأقوال السلف، وأقوالهم وعاء لأقوال الصحابة، إضافة إلى سلامة ألسنتهم من اللحن عموماً، وقل مثل ذلك فيمن جاء بعدهم من أتباع التابعين^(٢).

فالدول عن تفاسيرهم أو مضادتها، أو المجيء بقول جديد يناقض أقوالهم يعد خطأ^(٣).

وهذا المهيح هو ما سلكه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في وصفه لبعض الأقوال التفسيرية بالغرابة، ومن ذلك رده لقول أبي القاسم الزجاجي في معنى التأويب في قول الله جل وعلا ﴿يَجِبَالٌ أَوِّي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] حيث يقول: "وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه (الجمل) في باب النداء منه (يا جبال أوبي معه) أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسآد: سير الليل كله. وهذا لفظه وهو غريب جداً لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصواب أن المعنى في قوله تعالى ﴿أَوِّي مَعَهُ﴾ أي: رجعي معه مسجحة معه"^(٤).

أما وصفه القول التفسيري بالغرابة بحجة أنه مخالف لقول الجمهور فكثير، ومن ذلك استغرابه لقول أبي مجلز وقول مجاهد -رحمهما الله- في أصحاب الأعراف، حيث ذهب أبو مجلز إلى أنهم رجال من الملائكة، بينما ذهب مجاهد إلى أنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيقول الحافظ -رحمه الله- معلقاً: "... وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد -أحد التابعين-، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق، وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيه غرابة أيضاً"^(٥).

(١) التفسير (٣٢٢/١). وهو عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٠٥/١).

وروجه استغراب الحافظ ابن كثير لهذا القول هو مخالفته لما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ "لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام... الحديث".

(٢) انظر: تفسير التابعين (٤٩/١)، تفسير أتباع التابعين للواصل (ص: ١٧٨).

(٣) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (٢٥٨/١)، أسباب الخطأ في التفسير (٩٤٥/٢).

(٤) التفسير (٤٩٧/٦). وانظر كذلك (٣٧٦/٤).

(٥) التفسير (٤٢١/٣). وانظر كذلك: (٢٢٢/٥)، (٤٤٨/٧).

السبب الرابع: النقل عن بني إسرائيل.

مما تميز به الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حسن التعامل مع مرويات بني إسرائيل، فقد رسم لنفسه منهجاً أفصح عنه في مقدمة تفسيره حيث ذكر أن الإسرائيليات تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، وأنها على أقسام ثلاثة: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه فلا هو من الأول ولا هو من الثاني، فهو مما نؤمن به ولا نكذبه وتجاوز حكايته، مع أن غالب هذا القسم مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني^(١).

وبيّن -رحمه الله- أن ما أذن في التحديث به إنما هو "فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل"^(٢).
ولذلك لما حكى -رحمه الله- الأثر الذي رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قصة ملكة سبأ تعقبه بقوله: "قلت: بل هو منكر غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب عن ابن عباس، والله أعلم.

والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب -سامحهما الله تعالى- فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوبد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة"^(٣).

ولما ذكر -رحمه الله- خلاف الناس في أول من بنى الكعبة، استغرب قول أبي جعفر الباقر في أن الملائكة بنت الكعبة قبل آدم عليه السلام، واستغرب أيضاً قول عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم في أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء، وطور سيناء، وطور زيتا، وجبل لبنان، والجودي، وألحق بالقولين الأولين قول وهب بن منبه في أن الباني هو شيث عليه السلام، ثم قال -رحمه الله-: "وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب، ولا يعتمد عليها بمجردا. وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين"^(٤).

القسم الثاني: أسباب متعلقة بالقرائن وأحوال النزول:

السبب الأول: مخالفة سياق الآية.

فالسبب من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فتفريق النظر بين أجزاء الكلام دون رد أول الكلام على آخره سبيل للخطأ والغرابة^(٥).

(١) انظر: التفسير (٩/١). وقد صرح به أيضاً في موضع آخر (٣٤٨/٥).

(٢) التفسير (٣٩٤/٧).

(٣) التفسير (١٩٨/٦).

(٤) التفسير (٤٢٥/١)، وانظر كذلك (٢٢٢/١).

(٥) انظر: بدائع الفوائد (٣١٤/٤)، والموافقات للشاطبي (٢٦٦/٤).

ومن أمثلة ما استغربه ابن كثير -رحمه الله- لمخالفته سياق الآيات قول الإمام قتادة -رحمه الله- في أن عمر نوح كله ألف سنة إلا خمسين عاماً، فذكر أن نوحاً عليه السلام لبث في قومه قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة سنة، وبقي بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. قال ابن كثير -رحمه الله- متعباً: "وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية^(١) أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً"^(٢).

السبب الثاني: مخالفة ظاهر الآية.

فالأصل في نصوص الوحي أن تحمل على ظاهرها، وتفسر على حسب ما يقتضيه ظاهر اللفظ، ولا يجوز العدول عن ظاهرها إلا بدليل^(٣).

وهذا ما مشى عليه ابن كثير واستغرب الأقوال التي خالفته، ومن ذلك استغرابه لقول يحيى الحصين في المراد بالأبصار في قوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: هي العقول. قال ابن كثير متعباً: "وهذا غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية^(٤). ومثله صنع مع قول الحسن -رحمة الله على الجميع- في قوله تعالى ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣] حيث قال: "بعينك". قال ابن كثير مستغرباً قوله: "وهذا القول غريب. وقد صرح بالنام ما هنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه"^(٥).

لكن ابن كثير -رحمه الله- قد يستغرب قولاً موافقاً لظاهر الآية؛ ذلك أنه "يجوز باتفاق المسلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى ويصرف الكلام عن ظاهره، إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن سمي تأويلاً عن الظاهر فذلك لدلالة القرآن عليه، ولموافقة السنة والسلف عليه، ولأنه تفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسيراً له بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله والسابقين"^(٦).

ومن أمثلة ذلك استغراب الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لقول طاووس في تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥] حيث قال: "لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه عمداً" قال ابن كثير متعباً: "وهذا مذهب غريب عن طاووس، وهو متمسك بظاهر الآية"^(٧). ثم ساق الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قولاً

(١) يقصد قول الله جل و علا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [العنكبوت: ١٤-١٥].

(٢) التفسير (٢٦٨/٦). وانظر كذلك (٣٠٢/١)، (٤٢١/٣).

(٣) انظر: جامع البيان للطبري (٦٧٨/٩)، الصواعق المرسلية (٣١٠/١).

(٤) التفسير (٣١٠/٣). وقول أبي الحصين أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٠٧/٦).

(٥) التفسير (٦٩/٤). وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣/٨).

(٦) مجموع الفتاوى (٢١/٦).

(٧) التفسير (١٩٢/٣).

لمجاهد في الآية بأن المراد بالمتعمد في الآية هو القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه، أما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه. ثم قال متعباً: "وهو قول غريب أيضاً، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. قال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناس..."^(١) ثم ساق -رحمه الله- وجه ذلك.

السبب الثالث: الجهل بتاريخ النزول.

استغرب ابن كثير -رحمه الله- كثيراً من أقوال المفسرين المترتبة على معرفة تاريخ النزول، ومن ذلك ما ذكره في تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] حيث يقول: "قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة"^(٢).

السبب الرابع: مخالفة الواقع.

قد يذكر أحد المفسرين قولاً في تفسير الآية، وهذا القول يخالف الواقع والحال الذي نزلت الآية في شأنه، ولهذا كان لزاماً على المتصدي لتفسير الآيات أن يراعي أحوال من نزلت فيهم الآيات، ولهذا استغرب الإمام ابن كثير -رحمه الله- عدداً من أقوال المفسرين المخالفة لهذا الأمر، فعند قول الزهري في المراد بالأشهر في قوله ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] وأن ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم. قال: "وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك"^(٣).

تلك أبرز الأسباب التي وقفت عليها من خلال استقرائي لمواضع الأقوال التفسيرية التي وصفها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بالغرابة والله أعلم.

المبحث الثالث: منزلة القول الغريب عند الحافظ ابن كثير

لم يكن وصف الحافظ ابن كثير -رحمه الله- للقول التفسيري بالغرابة على حد سواء، بل كان الوصف متفاوتاً، فأحياناً يطلق على القول وصف الغرابة مجرداً، وأحياناً يقرنه بأوصاف زائدة تنبئ عن حكمه على القول، بيد أنه أحياناً في إطلاقه لوصف الغرابة لا يريد به إلا المعنى اللغوي الذي يدل عليه لفظ الغريب، لا سيما وأن ذلك الوصف قد يقترن بالتنصيص على صحة إسناده لقائله ونحو ذلك من العبارات، وهذا مثل صنيعه مع قول ابن مسعود -رضي الله عنه- عند تفسير قول الله

(١) المصدر السابق. وانظر كذلك (٢٢٢/٥).

(٢) التفسير (٤٧٣/٤). وانظر كذلك (٣٩٣/٢).

(٣) المصدر السابق (١٠٣/٤). وانظر كذلك (٨٣/٥).

تبارك وتعالى ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] إذ قال: "لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون قال: رب، أي شيء أقول؟ قال قل: هيا شراهما. قال الأعمش: فسر ذلك: الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء". قال ابن كثير معلقاً: "إسناد جيد وشيء غريب"^(١).

وما وصفه ابن كثير -رحمه الله- بالغرابة من الأقوال التفسيرية على قسمين:

الأول: ما أطلق عليه وصف الغرابة مجرداً عن أي حكم، وهذا أحياناً يقصد به المعنى اللغوي للفظ الغرابة كما مر آنفاً، وأحياناً يشير إلى أن الغرابة متقاوثة كقوله مثلاً بعد أن يحكي قولاً غريباً (وأغرب منه)^(٢)، أو (غريب جداً)^(٣).

وهذا القسم أحياناً يجعله الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مقابل القول الأقوى أو الأقرب، كقوله: "وقال سعيد بن جببر ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]: هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى"^(٤).

وفي بعض الأحيان في مقابلة القول الأظهر أو الظاهر كقوله "وعن الحسن وقتادة: ﴿مَنْ أَلْمَعَصِرَتِ﴾ [النبأ: ١٤] يعني: السماوات. وهذا قول غريب. والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب"^(٥). ومرات عديدة يجعله في مقابلة القول الصحيح كقوله: "عن الحسن في قوله ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]. قال: سوداء شديدة السواد. وهذا غريب، والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه فاقع لونها"^(٦).

وأحياناً يصدره بلفظ مشعر بتضعيفه القول ورده كما في إيراده الأقوال الواردة في المراد بقوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٤٠] حيث يقول: "زعم عبدالله بن لهيعة أنه الخضر. وهو غريب جداً"^(٧).

القسم الثاني: ما قارن وصف الغرابة فيه الحكم، وذلك أن يذكر الحافظ ابن كثير القول التفسيري موصوفاً بالغرابة ومذنباً بالحكم على هذا القول.

وهذا القسم أيضاً فيه تفاوت، فالأحكام التي أطلقها الحافظ -رحمه الله- على الأقوال التفسيرية الموصوفة بالغرابة ليست على درجة واحدة، فأحياناً يستغرب القول ويبين صحة سنده، ففي تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿وَرَبَّيْبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] نقل عن علي بن أبي طالب

(١) التفسير (٢٩٦/٥). وانظر كذلك (٢٥٢/٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٥٦/١)، (٢٦٤/٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٣٦١/١)، (٨٣/٥).

(٤) المصدر السابق (٤٨٠/٧). وانظر (٢٦٨/٦) في مقابل القول الأقرب.

(٥) المصدر السابق (٣٠٣/٨)، وانظر كذلك (٢٦٠/١).

(٦) المصدر السابق (٣٠٢/١)، وانظر كذلك (٢٨٦/٨).

(٧) المصدر السابق (١٩٣/٦)، وانظر كذلك (٢٦٤/١).

-رضي الله عنه- بأن الربيبة لا تحرم إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم يكن كذلك فلا تحرم^(١)، ثم قال معلقاً: "هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه، وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية فاستشكله، وتوقف في ذلك"^(٢).

وأحياناً يكون العكس، فيستغرب القول ويقدم في سنده، ومن ذلك تعليقه على قول الحسن البصري في المراد بالرجلين في قوله تعالى ﴿وَأُتِلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧] أنهما رجلان من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات.

قال ابن كثير -رحمه الله-: "وهذا غريب جداً، وفي إسناده نظر"^(٣).
وأحياناً يكون النقد للقول والسند معاً، ومن ذلك ما ذكره عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في كذا وكذا. فقال النبي ﷺ لأصحابه (إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فأخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم، فأنزل الله عز وجل ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال ابن كثير معلقاً: "هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر"^(٤).
ومرة يستغرب القول على تقدير صحة سنده، فقد نقل عن ابن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل عن أبي بكر العبسي قال: قرأ عمر رضي الله عنه ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠] قال: هم أهل الكتاب.

قال -رحمه الله- متعباً: "قلت: وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول"^(٥).
وفي بعض الأحيان يضيف الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى وصف الغرابة وصفاً يصرح فيه باطراح القول، بوصف النكارة، وهذا ما حصل له مع قول عبدالرحمن الأعرج في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] قال: كان يوم فتح مكة.
قال ابن كثير متعباً: "وهذا القول غريب جداً، بل منكر"^(٦).

(١) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩١٢/٣).

(٢) التفسير (٢٥٢/٢).

(٣) المصدر السابق (٩١/٣). وقول الحسن البصري أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره (٣٢٤/٨).

(٤) التفسير (٤١/٤)، وأثر جابر -رضي الله عنه- أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره (١٢١/١١).

(٥) التفسير (١٦٦/٤) وقول عمر -رضي الله عنه- أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨١٧/٦).

(٦) التفسير (٢٤٧/٧)، وانظر كذلك (٥٧٩/٦).

وأحياناً يحكم عليه بالضعف كقوله في المراد بالشجرة الملعونة في قوله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] حيث يقول: "وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف"^(١).

وقد يصرح ببعد القول وتكلفه كما فعل مع قول أبي العالية حينما ادعى أن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] نزلت في اليهود؛ وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أمراً له أن يستعيذ من فتنة الدجال ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. قال ابن كثير متعقباً: "وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد وإن كان رواه ابن أبي حاتم في كتابه. والله أعلم"^(٢).

وكذلك فعل في رد قول الحسن البصري -رحمه الله- في المراد بقوله ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] حيث قال: المراد بذلك يوم الأحزاب. قال ابن كثير -رحمه الله-: "وهو غريب لا يعول عليه"^(٣). هذا ومما يجدر التنبيه عليه أن كثيراً من الأقوال التفسيرية التي وصفها ابن كثير بالغرابة، كان مسبوقةً بنقدها وإن لم يصفها المتقدمون بالغرابة، وقد أفاد -رحمه الله- من ابن جرير الطبري في نقدها^(٤)، وقل مثله مع شيخه تقي الدين ابن تيمية^(٥).

ولا يعني ما ذكرته أنفاً أن الحافظ ابن كثير كان مجرد ناقل، بل كان متميزاً حتى فيما ينقل ممن سبقه، ولذلك كان -رحمه الله- ربما التمس للقول الغريب وجهاً يخرج به عن غرابته، ومن ذلك ما حكاه عن الزبير بن العوام أنه قال: هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات فنزلت فيه ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] قال الزبير: فكننت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزنني شيء حزني على وفاته حين بلغني؛ لأنه قلَّ أحد ممن هاجر من قريش إلا معه بعض أهله أو ذوي رحمه، ولم يكن معي أحد من بني أسد بن عبد العزى، ولا أرجو غيره. قال ابن كثير معلقاً: "وهذا الأثر غريب جداً، فإن هذه القصة مكية، ونزول هذه الآية مدنية، فلعله أراد أنها أنزلت تعم حكمه مع غيره، وإن لم يكن ذلك سبب النزول"^(٦).

(١) المصدر السابق (٩٢/٥).

(٢) التفسير (١٥٢/٧) وقول أبي العالية عزاه السيوطي لابن أبي حاتم في الدر المنثور (٢٩٤/٧).

(٣) التفسير (١٠٩/٢). وانظر قول الحسن البصري عند ابن جرير في تفسيره (٧/٦).

(٤) انظر: التفسير (٩٣/٣) وقارنه بتفسير الطبري (٣٢٤/٨).

(٥) انظر: التفسير (٩٧/٧) وقارنه بمجموع تفسير شيخ الإسلام (٣٤٠/٥).

(٦) التفسير (٣٩٣/٢). وأثر الزبير بن العوام -رضي الله عنه- أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٥٠/٣).

هذا وما استغربه ابن كثير من الأقوال التفسيرية ولم يبين وجه الغرابة فيه، كان قد وجهه غيره من المفسرين وخصوصاً ممن سبقه، ومن الأمثلة على ذلك استغراب ابن كثير لقول سعيد بن جبير عند تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿كَهَشِيمٌ مُّحْطَرٌّ﴾ [القمر: ٣١] "التراب المتناثر من الحائط"^(١). قال ابن كثير: "وهذا قول غريب، والأول وأقوى"^(٢).

قال ابن عطية معلقاً على قول سعيد بن جبير: "وهذا متوجه؛ لأن الحائط حظيرة، والساقط هشيم"^(٣).

وبعد، فإن ما وصفه ابن كثير من الأقوال التفسيرية بالغرابة ليس له حكم واحد، ولا مرتبة واحدة، بل هو يتفاوت في القرب والبعد تبعاً لوجه الغرابة وسببها. وعليه، فليس كل قول وصفه الحافظ ابن كثير بالغرابة ضعيف أو مردود، وإنما يأخذ حكمه من علة الغرابة وسببها، ويكون القول الغريب عند ابن كثير، كل قول خالف الطرق المعتمدة عند المفسرين والتي أشير إليها في أسباب الغرابة. والله أعلم.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي المكرمات وبعد: ففي نهاية هذا البحث المتواضع، يقدم كاتبه بين يدي القارئ الكريم جملة من النتائج التي توصل إليها مديلاً إياها بأهم التوصيات، فمما خرج به الباحث في هذا البحث: أولاً: تجلي شخصية الحافظ ابن كثير النقدية، وظهر ذلك جلياً في وصفه لبعض الأقوال التفسيرية بالغرابة، إذ إن إطلاق الغرابة يستلزم الاطلاع على أقوال السابقين، والوقوف على درجة الغرابة، ولا يتسنى ذلك إلا لحاذق وناقد وبصير. ثانياً: تميز الحافظ ابن كثير في عرض الأقوال التفسيرية الغريبة من حيث عزوها إلى قائلها، وإيراد علة القول الغريب، وبيان سبب الغرابة. ثالثاً: اعتمد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في وصف القول التفسيري بالغرابة على عدة أسباب، منها ما يتعلق بالنقل والأثر، ومنها ما يعود إلى القرائن وأحوال النزول. رابعاً: لم تكن الأقوال التفسيرية التي وصفها الحافظ ابن كثير بالغرابة على مرتبة واحدة في الحكم، بل ولا على منزلة واحدة في القرب والبعد، بل هي متفاوتة فمنها ما يكون مقابلاً للأقوى والأظهر والأرجح، ومنها ما يكون مردوداً بعيداً لا يعبأ به.

(١) أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره (٤٦/٢٢).

(٢) التفسير (٤٨٠/٧). وانظر كذلك (٣٠٣/٨).

(٣) المحرر الوجيز (١٥٠/٨).

أما التوصيات:

أولاً: يوصي الباحث بدراسة المنهج النقدي لدى الحافظ ابن كثير، والوقوف على مصادره في النقد، ومقارنة منهجه بمنهج المفسرين ممن سبقه وأفاد منه.

ثانياً: أدعو الباحثين إلى جمع ودراسة الأقوال التفسيرية الغريبة عند ابن كثير، وبيان منهجه في إيرادها، وعلة وصفه لها، وبيان أسباب الغرابة.

ثالثاً: أرى أن تجمع أسباب الغرابة التي أوردها ابن كثير، وتقرن بما ذكرها غيره من المفسرين، وأن يكتب في ذلك بحثاً مستقلاً.

رابعاً: أهيب بالباحثين إلى تحرير مصطلح الغريب عند المفسرين عموماً، وعلاقته بمصطلح الشاذ، والضعيف، والباطل، وهذا لا يتهيأ إلا أن تتظافر المؤسسات العلمية بدعمه وتكوين فرق بحثية من أجل تحريره.

المراجع:

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد (ت: ٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، دار التفسير.

ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ت: ٧٢٨هـ)، تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب، تحقيق: عبدالعزيز محمد الخليفة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ، دار الصميعي.

الخصيري، محمد بن عبدالله، تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، دار الوطن. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت: ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من الباحثين بإشراف شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت: ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، مكتبة الخانجي.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ، دار التأصيل.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله التركي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار هجر.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ، دار طيبة.

العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، اعتنى به: نظر محمد الفاريابي، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ، دار طيبة.

الرازبي، أبو محمد عبدالرحمن بن محمد (ت: ٣٢٧هـ)، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، دار ابن الجوزي. الموصلي، أبو الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية.

الهذلي، أبو هاشم يوسف بن علي (ت: ٤٦٥هـ)، الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، تحقيق: جمال بن السيد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، مؤسسة سما للتوزيع والنشر. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: خليل مأمون شيخا، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، دار المعرفة.

النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فواد عبدالباقي، دار إحياء التراث. الواصل، خالد بن يوسف، تفسير أتباع التابعين أعلامه ومعالمه، العدد الثالث عشر، جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ، بحث منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية. الحري، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، دار القاسم.

يعقوب، طاهر محمود محمد، أسباب الخطأ في التفسير دراسة تأصيلية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، دار ابن الجوزي.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، دار ابن القيم، دار ابن عфан. ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت: ٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ، دار عالم الفوائد.

ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت: ٧٥١هـ)، الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار العاصمة. ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ت: ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ.

الأندلسي، أبو محمد عبدالحق بن عطية (ت: ٥٤١هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، وزارة الأوقاف القطرية.

دليل الأعمال والدراسات العلمية المتعلقة بتفسير ابن كثير، إعداد: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الخامس والعشرون، جمادى الآخرة، ١٤٢٩هـ.